د. محمود يونس

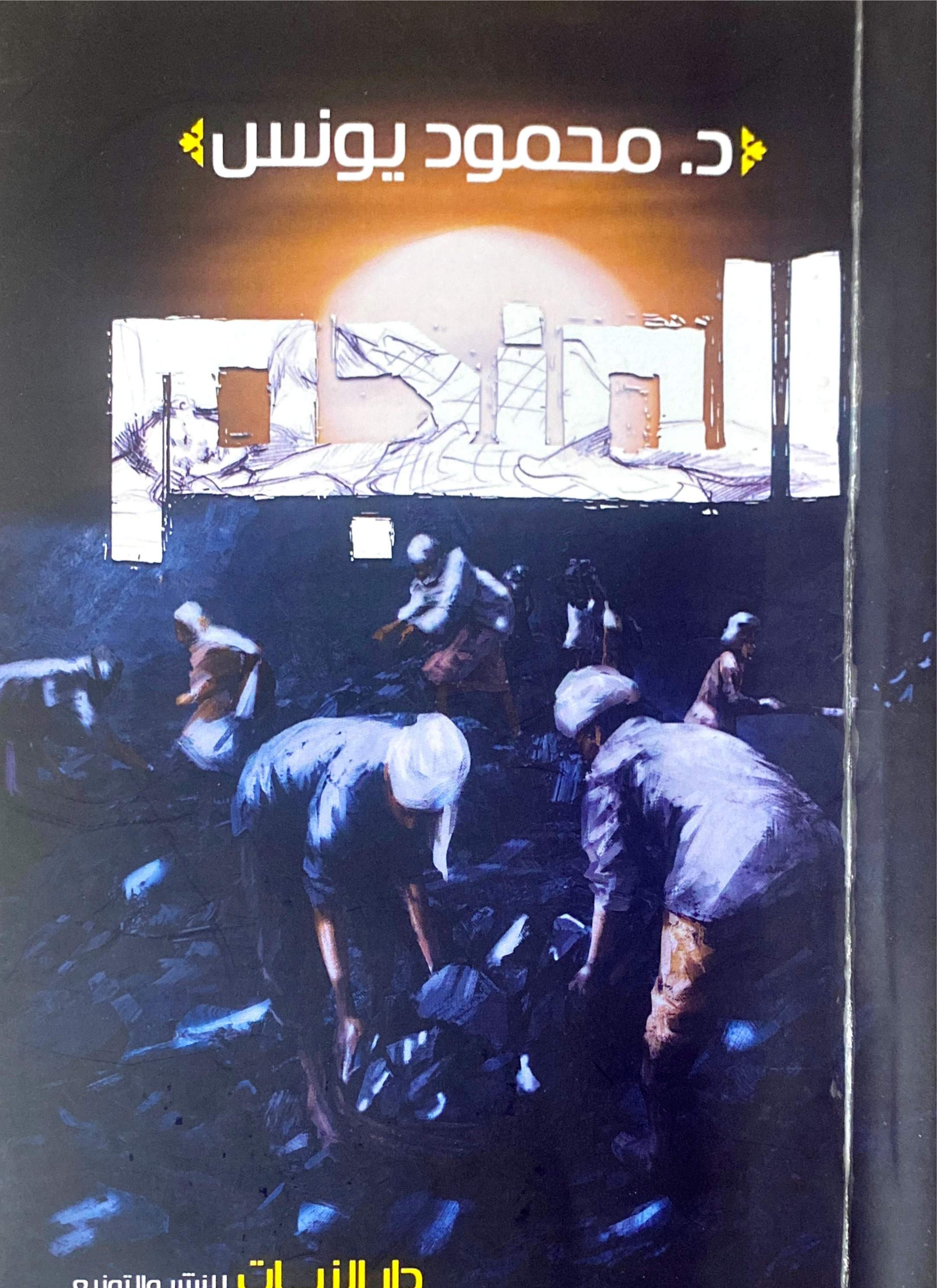

دار الزيات للنشر والتوزيع

المنْجَم

حقوق الطبع محفوظة ©

اسم الكتاب: المنْجَم

تأليف: محمود يونس

الفطع: 21X14

تدقيق لغوي: كارم أحمد

سنة النشر: 2023

تصميم داخلي: الباشا عبد الباسط

الناشر: دار الزيات للنشر والتوزيع

تم الإيداع بدار الكتب والوثائق المصرية برقم: 2022 / 28006

الترقيم الدولي (ISBN): 978 - 977 - 844 - 373 - 8

دار الزيات للنشر والتوزيع

المشهرة قانونًا بسجل تجاري رقم/ 49351

ت: 01066736765 - 01015766014 / shahnda71@gmail.com

المنْجَم

« رواية »

محمود يونس

المقدمة

كان من المثير لشخصي أن أكتب تلك القصة في أحداث يغمرها المطر في فصل الشتاء، لأنني أرى أنه أكثر الفصولِ غموضًا وجاذبية، وأكثر فصول السنة إيحاءً وباعثًا على الكتابة، فما أجمل حكايات الشتاء قاصًّا أو قارئًا.

إن ارتطام المطرِ بالأرض ينتج أجمل عطرٍ من الممكن أن يتنفسه الإنسان، وصوت المطر تشعرُ وكأنه قيثارة من السماء.

يحيا الإنسان على الأرض عالمًا القليل وجاهلًا الكثير من أحوالها، فالأرض تُخفي أكثر مما تُظهر، وتأخذ أكثر مما تعطي.

وعادة الإنسانِ أنه لا يقنع بما يعرف وإنما دائمًا يبحث عن المجهول حتى لو عرَّضه ذلك للمتاعب والأخطار. وربما طمح الإنسانُ إلى العيش في عالم آخر باحثًا عن السعادة المفقودة.

يأتي الشتاء حاملًا بين طيَّاته كثيرًا من السحر والغموض.

حتى المطر حين يصطدم بالأرض تكون له رائحة أراها الأجمل

بين كل الروائح الجميلة.

وكأن الأرض تغازل قاطنيها بتلك الرائحة.

البداية

في ليلة من ليالي الشتاء الباردة، ليلة لا ينقصها المطر، كان عيسى مصطفى السيد، مهندس تعدين يعمل في أحد مناجم الذهب في الصحراء الشرقية، جالسًا في أحد مقاهي وسط البلد منتظرًا أصحابه ليسلم عليهم قبل سفره إلى البحر الأحمر.

كان عيسى عاشقًا شكلَ المطر ورائحته وصوت ارتطامه بالأرض، لكنه كان منهمكًا في التفكير كعادته، فقد كان شخصًا قلقًا بطبعه.

فكر عيسى في أولاده وفكر في زوجته، فكر في المستقبل ثم تطرق بتفكيره إلى الماضي وإلى معاناته مع نفسه ومع أفكاره.

كان المطر في تلك الليلة شديدًا، والرعد مرعبًا، وكرات الثلج المتساقطة كأنها جدار عازل بين المكان وبين بقية العالم.

في تلك اللحظة نظر عيسى إلى ذلك المشهد المهيب، وعكس كل البشر تمنى لو أنه في جزيرة منعزلة يحيطها المطر من كل اتجاه بحيث

لا يرى أحدًا من هذا العالم، فقد كان عاشقًا الوحدة ويرى سعادته في أن لا يرى أحدًا إلا ما يرسمه في مخيلته، فقد أحب أن يرى العالم كما رسمه في مخيلته لا كما هو كائن.

مع شكل البرق وصوت الرعد مع صوت ارتطام المطر بالأرض في مشهد يذكرك بأفلام الرعب، فإذا بقطة صغيرة تعبر الشارع لتحتمي بالمقهى.

قطع مشهد دخول القطة إلى المقهى خيال عيسى، لينظر إلى تلك القطة الصغيرة الخائفة والتي وجدت بجوار عيسى مكانًا للاحتماء به، فإذا بعيسى يضع يديه على القطة بعطف لطمأنتها، تنظر القطة إلى عيسى وينظر إليها فإذا به يرى في عينيها شيئًا عجيبًا.

رأى عيسى في عينيها شبحًا يمد يده إليه وكأنه يستغيث به، لم يتحقق عيسى من حقيقة ذلك الشبح فمن خوفه أغمض عينيه ثوانيَ وعندما فتحها لم يجد القطة.

أصاب عيسى من القلق ما أصابه، ومن الرعب ما لم يتوقعه، لم يقطع تلك الحلقة من القلق إلا دخول أصحابه مصطفى وإبراهيم.

فإذا بصديقه مصطفى يضع يديه على كتفه ممازحًا:

- بتفكر في إيه يا عيسى.

تدخل إبراهيم ضاحكًا بصوت عالٍ:

- أكيد بيفكر فيَّ، ما أنا بوحشه.

أخذ عيسى بعض الوقت ليدرك ما يدور حوله، ثم تحدَّث مع أصحابه وكأنه يريد أن يصرفهم عمَّا يدور في رأسه.

- لا بفكر فيك ولا فيه، أنا بفكر في العيال اللي كل شويه أسافر وأسيبهم.

جذب مصطفى الكرسي ليجلس بجوار عيسى وينظر إلى عينيه وكأنه يعلم أن ليس هذا ما يفكر فيه.

- خد بالك أنت من نفسك، وما تخافش على العيال، في عينينا.

نظر إليه عيسى مبتسمًا.

- أنت عارف إيه اللي مزعلني؟

- إيه يا حبيبي؟

- الواد إبراهيم دا بيوحشني أوي.

تدخل إبراهيم في الحوار:

- يا عم اطلب لنا قهوة بدل الكلام الحلو دا.

- أنا ما عنديش وقت، اشربوا أنتم القهوة، أنا يا دوب أسلم على العيال.

خرج عيسى من المقهى ولا يزال في خاطره ما رآه في تلك الليلة، ما هذا الشبح الذي يمد يده إليه وكأنه يستغيث، أم إنه مجرد خيال حدث بسبب ذلك المشهد المخيف من البرق والرعد، هكذا كان يحدث نفسه.

كانت الليلة شديدة الظلام مع رياح تذكر بالريح العاتية التي أهلكت قوم عاد.

تطرق عيسى إلى ما كان يحدث في أثناء طفولته، فقد كان يرى أشياء ليس لها وجود في الواقع.

تذكر عيسى تلك الليلة، كان عمره 14 عامًا حين كان عائدًا من صلاة العشاء في القرية من مسجد يبعد عن مسكنه نحو 2 كيلومتر، في تلك الليلة كانت الرياح شديدة وصوتها تتخيل وكأنه يحدثك،

كان عيسى يمر في طريقه وسط أراضٍ زراعية، تصور عيسى شخصًا يمشي خلفه ويمتد خياله أمامه مع ضوء القمر، كلما أسرع عيسى أسرع الشخص، وكلما أبطأ عيسى أبطأ الشخص.

تذكر عيسى الرعب الذي عاشه في تلك الليلة، والذي لم ينتهِ إلا بوصوله إلى بيته، حيث لم يختفِ ذلك الخيال إلا عند باب البيت.

وصل عيسى إلى منزله منهكًا من التفكير ومن برودة الطقس ومن تفكيره في تلك الرحلة الطويلة التي تنتظره.

فتح الباب وهو غارق في ملابسه من فرط ما لاقى في طريقه من مياه المطر.

كان يرتدي الكوفية ومنكمشًا داخل ملابسه مع رعشة بسيطة أصابته عندما بدأ يشعر ببعض الدفء.

عندما رأته زوجته في تلك الحالة، أصابها ما أصابها من القلق عليه، ثم أسرعت إليه نازعة عنه ما يرتديه من الملابس المبللة وصارخة فيه:

- حرام عليك يا عيسى اللي بتعمله في نفسك دا.

- إيه بس في إيه؟ ما تقلقيش أنا كويس.

- مش قلت لك بلاش تنزل في الجو دا يا عيسى.

- ما أنت عارفه إن أنا بتفاءل لما بسلم على أصحابي قبل ما أسافر.

- يا حبيبي كانوا جم يسلموا عليك في البيت، بدل البهدلة دي.

- أنتِ عارفه إني مش بحب حد من أصحابي يدخل البيت، بيتي دا خاص بيَّ وبيكِ وبالأولاد بس.

- أنا آسفة يا سيدي بس أنا خايفة عليك.

نظر عيسى إلى زوجته نظرة حب دون أن يرد، دخلت ابنته حلم قاطعة هذا الحوار:

- ما تخليك معانا النهارده يا بابا، بلاش تسافر النهارده، أنتَ بتوحشني أوي.

احتضن عيسى ابنته بقوة محركًا يده على شعرها بلطف، ثم نظر بعينيه إلى ما لا نهاية.

- إن شاء الله يا حبيبتي لما آجي المرة دي هاخدك أفسحك في أي حتة تختاريها.

- بجد يا بابا؟!

- آه بجد يا روح بابا، علشان أنتِ أغلى حاجة عندي في الدنيا.

ذهب كريم وارتمى في أحضان والده، وقال:

- طيب وأنا يا بابا مش أغلى حاجة عندك؟

- طبعًا يا حبيبي، أنتَ أغلى حاجة.

- يعني أنا ولا هو أغلى يا بابا.

- رد يا سيدي أديك وقعتْ نفسك في مشكلة بين الاتنين.

- طيب بصوا بقى، أنتِ أغلى واحدة وأنتَ أغلى واحد.

تضحك منى.

- طيب وأنا؟!

- أنتِ أنا.

- أنا مش أد الكلام دا يا عم، يلا بقى علشان ما تتأخرش.

- طيب ما تاخدني معاك يا بابا، أنتَ بتوحشني أوي، أنا راجل دلوقتِ.

- أنت راجل طبعًا، علشان كدا أنا سايبك مع ماما ومع أختك علشان تاخد بالك منهم، وأنا مش موجود.

- خلاص يا ولاد، بابا لازم يروح شغله.

ثم نظرت إلى زوجها نظرة حب.

- هتوحشني.

- وأنتِ كمان هتوحشيني، أنتِ عارفه أصعب لحظة بتمر عليَّ هي اللحظة دي وأنا سايبكم ومسافر، بحس إني شايل هم الدنيا كله وأنا سايبكم لوحدكم.

- ما تخافش علينا، أنتَ مش لسه قايل إنك سايب معانا راجل.

ابتسم عيسى ونظر إلى أبنائه نظرة فيها مزيج من القلق والخوف والحب، وخرج مُغلِقًا الباب خلفه، نظر أمامه وقلبه يشده إلى الخلف.

كان عم إسماعيل سائق الشركة منتظرًا بالسيارة الخاص بالشركة أسفل البيت، مرتديًا ملابس ثقيلة تظنه وكأنه ارتدى كل ملابسه مع كوفية يلفها حول رقبته ولم يسلم منها فمه.

أسرع عيسى إلى السيارة ليختبئ فيها من ذلك الجو المرعب. فتح الباب وجلس مرتعشًا.

- إزيك يا عم إسماعيل عامل إيه.

ثم استطرد:

- عامل في نفسك كدا ليه يا راجل يا طيب، دا أنا ما عرفتكش، أنت متنكر ولا إيه؟

- الحمد لله يا باشمهندس، ما أنت شايف الجو عامل إزاي، دا أنا حاسس إن احنا شوية وهنطير.

- عندك حق والله، الجو السنة دي غريب فعلًا.

- آه والله يا باشمهندس أنا عمرى ما شفت الجو دا قبل كدا، علشان كدا الحاجة ما بتنزِّلنيش من البيت غير لما تطمن إني لابس تقيل.

- يلا يا راجل يا طيب نبدأ المشوار الطويل دا، علشان نوصل قبل الصبح.

- يلا يا باشمهندس، نتوكل على الله.

وبدأ يقرأ بصوت مسموع ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ ١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ١٤﴾.

بدأت الرحلة الطويلة إلى المنجم، وكعادته دائمًا في السفر الطويل يغمض عيسى عينيه ويبدأ في استرجاع ذكرياته القديمة وكأنه يشاهد فيلمًا أبيض وأسود، فقد كان يتميز بقدرة كبيرة على تذكر الأحداث القديمة وكأنها حدثت الآن.

كان أكثر مشهد يتردد في مخيلته، هو ذلك الكابوس الذي تكرر كثيرًا في أثناء طفولته ورؤيته ذلك الوحش المخيف أسود الوجه، غليظ الملامح، قصير القوام، والذي كان دائمًا يأتيه من أعلى طائرًا ويجثم على صدره ويمنعه من الحركة ومن المقاومة، أو حتى من مجرد الصراخ لطلب العون.

كان ذلك الحلم يتكرر كثيرًا، فما إن يبدأ النوم حتى يأتيه ذلك الضيف الثقيل حاملًا معه كل رعب الدنيا وخوفها وظلامها. بدأ عيسى يرى ذلك الكابوس المرعب في عمر 10 سنوات، ولذلك كان دائمًا لا يحب الرقم 10 وكان يتشاءم منه، أو بالأحرى يخاف منه، فما أكثر ما يتشاءم الناس من الأرقام والأيام والأشخاص. ظلَّ عيسى يرى ذلك الكابوس حتى وقت قريب، لدرجة أنه يتعجب إذا

مر يوم لم يرَ فيه ذلك الكابوس، فبعض الأشياء المرعبة مع التكرار تصبح مؤنسة إلى حد ما، وربما يستوحش الشخص إذا غاب عنه ذلك الشيء المرعب.

بدأ عيسى يتخيل مجرد التفكير في أن يكون الإنسان مسلوب الإرادة وغير قادر على دفع الأذى عن نفسه، بماذا يشعر الإنسان في تلك اللحظة التي لا يستطيع فيها اتخاذ القرار ولا يستطيع دفع الأذى عنه ولا حتى يستطيع أن يصرخ ولا أن يعبر حتى عن خوفه وألمه.

انتبه عيسى مع صوت المكابح عند إبطاء السيارة عند ذلك المطب اللعين.

- فيه إيه يا عم إسماعيل؟!

- ما تقلقش يا باشمهندس، أنا مركز استريَّح أنت.

- أستريَّح إيه بقى، دا أنا قلبي وقع في رجليَّ.

- ما تخافش يا باشمهندس العمر واحد والرب واحد.

- ونعم بالله يا عم إسماعيل.

ثم استطرد:

- حاول تركن عند أي استراحة ندخل الحمام ونشرب قهوة علشان أنا محتاج لها ضروري، وأنت كمان علشان تركز.

- حاضر يا باشمهندس، أنا برضه عايز أشرب قهوة.

نزل عيسى وإسماعيل منكمشين من شدة البرد.

- ادخل يا باشمهندس واقفل الباب.

- ماشي يا عم إسماعيل، أنا هدخل الحمام على ما تطلب القهوة، أنت عارف أنا بحبها مظبوطة.

جلس عيسى وإسماعيل إلى طاولة قريبة من الباب، نظر عيسى إلى الخارج من خلف الزجاج الشفاف إلى المالا نهاية.

- تخيل يا عم إسماعيل إنك تبقى عايش وشايف ومفيش عندك مرض يمنعك من الحركة لكن مش قادر تمنع عن نفسك الأذى، أو مش قادر تهرب من حد بيطاردك، يعني ما عندكش القدرة على إنك تتخذ قرار وتنفذه، ولا حتى قادر تستغيث.

- دي حاجة صعبة أوي يا باشمهندس، دي تفرق إيه عن إني أكون ميت.

- شفت بقى قيمة إن ربنا يديك الإرادة والقدرة على إنك تاخد قرار.

قال مع ردة فعل بها بعض التعجب:

- ونعم بالله يا باشمهندس.

عاد عيسى وإسماعيل إلى السيارة وعاد عيسى إلى إغلاق عينيه واستعادة ذكرياته القديمة.

في تلك المرة تذكر عيسى الفتاة التي كان يحبها، وتذكر ذلك اليوم الذي تحدثت معه فيه، فقد كان يشعر بسعادة غامرة. كان عيسى في ذلك الوقت في عمر 16 سنة، رأى في المدرسة فتاة جميلة تشبه إلى حد كبير أميرات القصص الخيالية، وكان عيسى عاشقًا للجمال وكان أول معرفته بهذا العشق رؤيته هذه الفتاة، كان يفكر فيها كثيرًا ويتخيل أنها تحبه، ولكنه لم يكن يملك الجرأة ليحدثها أو ليعبِّر لها عن هذا الحب، فهو كعادته خجول يعيش في الخيال أكثر من الواقع، ويرسم أحلامًا ليس لها دليل إلا في مخيلته. ابتسم عيسى حين تذكر

أنه لم يكن يومًا ما فتى أحلام أي فتاة رغم رومانسيته الغالبة، وضحك محدثًا نفسه أن ذلك ربما يعود إلى أن معظم الفتيات لا يريدون الدخول في علاقات رومانسية إلا مع شاب يشبه عمر الشريف أو رشدي أباظة، وهو من سوء الحظ ليس من ذلك النوع، فقد كان يميل إلى السمرة وليس فارع الطول لتعجب به أي فتاة.

انتبه إسماعيل إلى ضحك عيسى.

- إيه دا، أنت بتضحك وأنت نايم يا باشمهندس.

- آه والله يا عم إسماعيل، افتكرت حاجة ضحكتني.

- طيب ما تضحكنا معاك يا باشمهندس.

- عمرك ما تخيلت يا عم إسماعيل إن أنت كنت تبقى زي رشدي أباظة أو عمر الشريف والبنات تجري وراك وتحبك.

ضحك إسماعيل بصوت مرتفع.

- عمر الشريف إيه يا باشمهندس، طيب قول علي الشريف.

- الله يسعدك يا عم إسماعيل ضحكتني والله.

عاد عيسى إلى نومه وإلى أحلامه وذكرياته القديمة، وحينما بدأ في تذكر أول مرة رأى فيها زوجته ورأى ملامحها تخيل أنها هي أيضًا

تفكر فيه في تلك اللحظة، وكأن خاطريهما التقيا في لحظة يرويان فيها تلك الحكاية.

قطع كريم خاطر أمه.

- ماما أنت سرحانة في إيه؟

- مفيش حاجة يا حبيبي.

كريم وكأنه يعرف ما تفكر فيه أمه.

- ماما أنت اتجوزتِ بابا إزاي يعني عرفتيه إزاي.

ابتسمت منى ابتسامة هادئة وأخذت نفسًا طويلًا.

- أنا كنت ساكنة في عمارة في وسط البلد، وفي نفس العمارة مقر الشركة اللي بيشتغل فيها باباك.

وفي يوم كنت راجعة من الجامعة وكانت الساعة 12 الظهر تقريبًا، وقتها كان عندي صداع جامد جدًّا، وكنت واقفة مستنية الأسانسير عشان أطلع الشقة في الدور السابع، ومقر الشركة كان في الدور التالت، كان هو كمان مستني الأسانسير، طلع معايَ لحد الدور السابع وكان فاضل باصص ناحيتي بشكل غريب. وأنا

عندي صداع جامد وكنت متنرفزة من نظراته ليَّ، هو أصلًا كان يبان إنه خجول ومش لايق عليه اللي بيعمله دا.

بدأ الموضوع يتكرر، يستناني كل يوم وأنا راجعة من الكلية، ينزل يقف قدام الأسانسير ويطلع معايَ للدور السابع وبعدين ينزل الدور التالت، وفي مرة في الأسانسير كلمني:

- السلام عليكم.

رديت وأنا ببتسم:

- عليكم السلام.

- أنت ساكنة هنا.

قلت في سري:

■ ما أنت كل يوم شايفني طالعة قدامك.

- آه ساكنة هنا.

- أنا مهندس بترول شغال في الشركة اللي في الدور التالت.

- أهلًا بحضرتك.

- وحضرتك.

- في سنه رابعة كلية فنون جميلة قسم ديكور.

- اسم حضرتك إيه.

- حضرتك أنا وصلت.

وأكملتُ بإحراج:

- بعد إذنك.

قال مع حالة من التوتر:

- أنا آسف جدًّا.

نزلت في الدور السابع، وهو نزل بالأسانسير الدور التالت، بس بصراحة كنت مبسوطة أوي باهتمامه بيَّ.

قعدت طول الليل أفكر فيه وفي كلامه، وفي اهتمامه بيَّ. تاني يوم أنا اللي استنيت قدام الأسانسير علشان أشوفه، بس للأسف ما شفتهوش. ومر يوم واتنين، وفي اليوم التالت كنت زعلانة جدًّا إني ما شفتهوش. راجعة من الكلية وقفت قدام الأسانسير، المرة دى لقيته واقف فرحت جدًّا، بس مسكت نفسي. ركبنا الأسانسير وكنا لوحدنا، أنا ساكتة، وهو بدأ الكلام:

- أنا آسف لو أزعجت حضرتك المرة اللي فاتت.

- لا أبدًا.

- اسم حضرتك إيه؟

- منى.

- أنا اسمي عيسى.

- أهلًا بحضرتك.

- أنا مهندس في شركة التعدين اللي في الدور التالت.

- آه حضرتك قلت لي المرة اللي فاتت.

- آه معلش أنا نسيت.

هو ابتسم وأنا ابتسمت. استأذنت ونزلت وهو نزل الدور التالت. بدأت أتعلق بيه وأفكر طول الليل. وتكررت اللقاءات، وفي مرة ومن غير مقدمات قال لي: "بحبك". وكان مرتبك جدًّا. لقيت نفسى مرتبكة، وقلت له: "بعد إذنك". بس كنت طايرة من الفرح.

وبدأت قصة الحب والخطوبة والجواز.

- إزاي يا ماما.

- كنا كأننا حاجة واحدة، بنفكر في نفس الشيء في نفس اللحظة. أفكر فيه ألاقيه قدامي.

ثم أكملت وهي تتنهد:

- كنا روح واحدة متفرقة بين اتنين، يعني وهو بعيد أحس إن فيه حاجة ناقصاني.

- وهو يا ماما.

- هو كان بيقول لي لما بشوفك بحس إن الشمس طلعت، وكان دايمًا يقول لي:

■ أنت مش حته مني، أنت أنا، روح واحدة ومتقسمة بين اتنين.

أكملت منى:

- بينى وبينكم أنا برضه كان عندي نفس الإحساس، من أول مرة شفته، شفته بعين تانية غير كل الناس، كأنه بقية روحي اللي كانت غايبة عني، وفي لحظه بعتها لي ربنا.

في تلك اللحظة كان عيسى يتذكر بعض المواقف التي جمعته بزوجته منى، ثم ابتسم وهو يفكر في ذكرى جمعته بزوجته، حيث كانا يجلسان في أحد الكافيهات وكان عيسى ينظر إليها صامتًا حتى باغتته منى:

- أنت دايمًا بتقعد ساكت كدا!

رد عيسى مع احمرار وجهه:

- لا أبدًا، بس بصراحة بحس إن الكلام أقل من إنه يعبر عن اللي واحد حاسس بيه.

ابتسمتْ، ثم قالت:

- وأنت حاسس بإيه؟

فكَّر للحظة ثم أجاب:

- عارفة لما يبقى الواحد عنده شوق لحاجة هو مش عارفها لدرجة إنه بيدور عليها في وشوش الناس وفي الشمس وقت الغروب وحتى بين نجوم السما.

- وبعدين.

- أنا ما كنتش عارف إيه الحاجة دي، يعني شيء غيبي كدا.

سكت لحظة ثم أكمل:

- يعني حاجة ناقصة روحك علشان تحسي بالسعادة والراحة، تخيلي إني لما شفتك أول مرة لقيت اللي كان ناقصني دا، هو إحساس عجيب ما لوش تفسير ومش مرتبط بحاجة مادية، يعني تقريبًا كدا روح بتدور على روح. وبصراحة كان نفسي أعرف عندك نفس

الشعور دا ولا ولأ، لأني كنت متأكد إني مش هعيش الإحساس دا مع أي حد تاني وبصراحة برضه كان مستحيل ارتبط بواحدة لمجرد الجواز وخلاص.

ابتسمت منى ونظرت إلى عيسى.

- حلو تعبير روح بتدور على روح.

ثم أكملت:

- بس أنت ما عرفتش واحدة قبل كدا.

- تخيلي ولا عمري فكرت في الموضوع دا، أنا قلت لك أنا كنت بدور على اللي ناقصني وما كنتش عارف هو إيه لحد أما شفتك.

وصل عيسى إلى المنجم في الصحراء الشرقية نحو الساعة السادسة صباحًا وقد بدا عليه التعب والإرهاق هو وإسماعيل.

وكانت السماء ملبَّدة بالغيوم وصوت الرعد المتكرر كأنه يريد أن يخبر بحدث جلل.

إسماعيل وقد بدا عليه الإرهاق:

- حمدًا لله على السلامة يا باشمهندس.

ثم أكمل:

- يلا ندخل بسرعة من الجو دا.

عيسى مغمضًا عينيه:

- الله يسلمك يا عم إسماعيل، أظن إن أنت محتاج تنام.

- أنا أصلًا مش شايف قدامي.

ثم أكمل وهو يتثاءب:

- هسيبك وأدخل أنام.

- وأنا كمان هدخل أنام ساعتين ولا حاجة.

دخل عيسى إلى السكن الخاص بمهندسي الموقع وكان كل مَن فيه خالدا إلى النوم.

ثم دخل إلى غرفته وخلد إلى النوم فلم يستغرق وقتًا طويلًا في التفكير قبل النوم كعادته، حيث كان في حالة إعياء وإرهاق شديد.

استيقظ عيسى على صوت مزعج يناديه.

- اصحَ يا باشمهندس، أستاذ كمال مدير الموقع عايزك دلوقتِ حالًا.

استيقظ عيسى وهو يفرك عينيه حتى يستطيع الرؤية.

- هي الساعة كَم دلوقتِ يا عم إبراهيم.

- الساعة 9 يا باشمهندس.

- طيب يا راجل يا طيب أنا جاي الساعة 6، سِبني أنام شوية.

بإلحاح شديد:

- ما ينفعش يا باشمهندس، لو رجعت من غيرك كمال بيه هيخرب بيتي.

- حاضر أنا جاي معاك بس أغسل وشي.

توجه عيسى إلى الحمام حاملًا فوطة فوق رأسه مغمضًا عينيه، فإذا بزميله في الموقع مهندس حسن يقابله مصطدمًا به وهو خارج من الحمام وعلى وجهه الفوطة.

رفع حسن الفوطة من على وجهه.

- حمدًا لله على السلامة يا باشمهندس، أخبار مصر إيه؟.

- الله يسلمك يا حسن، أنا لسه واصل من ساعتين وما لحقتش أنام والله.

ثم أكمل:

- وأستاذ كمال لسه باعت لي.

- طيب استنى أعمل لك شاي معايَ، وأنزل أنا وأنت، ما هو أستاذ كمال عايزني أنا كمان.

- طيب اعمل الشاي على ما أخرج من الحمام.

بعد حوالي نصف ساعة نزل عيسى وحسن من السكن الخاص بمهندسي الموقع، متوجهين إلى مكتب مدير الموقع الأستاذ كمال عبد الله.

كلمهم سكرتير المكتب الأستاذ صبحي بتوتر:

- اتفضلوا الأستاذ كمال مستنيكو جوة.

وجه حسن كلامه إلى عيسى:

- شكل كدا الموضوع مهم.

- ربنا يستر.

طرق حسن الباب ودخل وخلفه عيسى.

قام كمال من على الكرسي متوجهًا نحوهما.

- إزيك يا عيسى، حمدًا لله على السلامة.

- الله يسلمك يا فندم.

- فيه موقع جديد حوالي 50 كيلو من هنا، عايزك أنت وحسن تروحوا الموقع وفيه 5 رجالة مستنينكو هناك وعايز أخبار سريعة عن الموقع.

قال عيسى بابتسامه باهتة:

- حاضر يا أستاذ كمال.

- طيب يا كمال بيه مهندس عيسى لسه جاي من إجازة وأنا المفروض كنت هنزل إجازة.

- معلش يا باشمهندس حسن تخلص الموضوع دا وتنزل إجازة طويلة ما تقلقش، بس علشان الإدارة في مصر مستعجلة على التقرير دا.

- حاضر يا كمال بيه، بس لو خطيبتي فسخت الخطوبة يبقى أنت المسؤول.

- ما تقلقش هي كدا كدا هتفسخها، أنت أصلًا مش بتاع جواز.

ابتسم حسن وعيسى وتوجَّها بالتحية لكمال وخرجا من المكتب متوجهين إلى غرفهما للم متعلقاتهما ثم التوجه إلى الموقع.

عيسى مبتسمًا:

- معلش يا عم إسماعيل، مكتوب عليك الشقا، طبعًا ما لحتقش تنام.

- علينا كلنا يا باشمهندس.

تحدث حسن بحسرة وسخرية:

- طيب أنتم لسه جايين من إجازة أمَّال احنا نعمل إيه!

- خلاص يا حسن ارضَ بنصيبك، يلا يا عم إسماعيل اتوكل على الله.

وبدأت الرحلة إلى الموقع الجديد.

وفي أثناء الرحلة كان عيسى يراقب السحب وكأنها تكلمه، وود لو يحكي لها أوجاعه وآلامه.

وصل عيسى وحسن إلى الموقع الجديد المخطط له لاستخراج الذهب، فإذا بمكان غريب وكأنه خارج حدود الأرض. وقف عيسى ينظر إلى هذا الموقع وشكل الجبال الفريد الذي يختلف عن أي موقع آخر قد شاهده من قبل، فالجبال تبدو في سلاسل متناسقة مع

ارتفاع تدريجي وكأنها تصعد إلى السماء، ولون الجبال التي يبدو كأنه الذهب.

حتى رمال الصحراء فيها نعومة شديدة تتصورها كأنها ماء متدفق.

وصل عيسى وحسن إلى الاستراحة التي جهزتها الشركة للمهندسين والعمال، وقد كان في استقبالهم رجل أسمر البشرة يرتدي جلبابًا أبيض وعمامة بيضاء على رأسه تحدث إليهم بلهجة نوبية:

- اتفضلو شرفتو.

فإذا بحسن يسلم عليه مبتسمًا:

- إزيك يا عم عثمان.

- أنا اسمي عبد العليم يا باشمهندس مش عثمان.

حاول عيسى أن يصلح ما أفسده حسن، واضعًا يده على كتف الرجل.

- إزيك يا عم عبد العليم.

ثم أكمل بابتسامة وقورة.

- معلش باشمهندس حسن بيحب يهزر، بس هو طيب والله.

ابتسم عبد العليم وهو ينظر إليهما.

- أنتم أولادي يا باشمهندس.

أكمل وهو يصطحبهما إلى داخل الاستراحة.

- اتفضلوا أنا الحارس والطباخ اللي معاكم في الموقع إن شاء الله.

تحدث حسن بلهجته المازحة دائمًا:

- طيب يا عم عبد العليم أنا نفسي في كوباية شاي لأن دماغي مش معايَ.

ضحك عبد العليم وأوشك أن يتكلم إلا أن حسن قاطعه:

- حاسس إنها سابتني وراحت حتة تانية، تقريبًا أنا جيت هنا وهي راحت القاهرة.

وهنا تدخل عيسى مرة ثانية لإنقاذ الموقف:

- يا بني بطل هزار بقى.

ثم توجه بحديثه إلى عبد العليم:

- معلش يا عم عبد العليم، هو كان نفسه يسافر القاهرة عشان يشوف خطيبته.

- إن شاء الله ترجعوا على خير.

وأكمل حديثه وهو يبتسم:

- اتفضلوا وأنا هعملكو الشاي، وشوية وأحضر لكم الغدا.

دخل عيسى وحسن ليستريحا إلى حين عمل الشاي، إلا أنهما من فرط التعب دخلا في سبات عميق، لم يفيقا منه إلا على صوت عم عبد العليم المميز:

- اصحى يا باشمهندس أنا جهزت الغدا وأنتم نمتو كتير...

كان العمال في انتظار عيسى وحسن على سفرة الطعام، يبادر أحد العمل بتحيتهم.

- حمدًا لله على السلامة.

رد عيسى التحية موجهًا حديثه إلى جميع العمال:

- إزيكم يا رجالة عاملين إيه، احنا نتغدا الأول عشان أنا جعان وبعدين نقعد نشرب الشاي ونتعرف.

وإن شاء الله ربنا يكرمنا وننجز المهمة اللي جايين عشانها.

بعد تناول الغذاء اجتمع عيسى وحسن مع العمال في استقبال الاستراحة، لترتيب أوضاع العمل في الموقع.

- يا ريت الشاي يا عم عبد العليم أهو يخف البرد دا شوية...

وأكمل حسن ضاحكًا:

- ويا ريت لو فيه شيشة كمان يبقى كتر خيرك.

فإذا بأحد العمال يرد بحماس شديد:

- موجودة يا باشمهندس.

- الله ينور عليك يا راجل، أصل الشيشة دي بتخفف الغربة بجد.

في تلك اللحظة يتدخل عيسى ليأخذ الحوار إلى الجد:

- احنا أول مرة نشتغل مع بعض يا رجالة.. بس إن شاء الله نقضي أيام كويسة مع بعض...

ونظر إلى أحد العمال مازحًا:

- أكيد أنت اللي بتفجر الديناميت.

رد العامل بتعجب:

- صح يا باشمهندس أنت عرفت إزاي؟

- دي اسمها الحاسة السادسة

ثم أكمل:

- أنا بس بعرف أقرا الملامح.

سادت الدهشة المكان لحظة. لم يقطعها إلا صوت عبد العليم:

- الشاي يا رجالة.

تدخل حسن في الحوار بعد أول رشفة:

- يا سلام يا عم عبد العليم الواحد كان محتاج الشاي دا جدًّا.

ثم أكمل:

- طيب يا رجالة نتعرف بقى.

بادر عبد العليم بالرد:

- أنا أعرفك عليهم يا باشمهندس بالدور.. من اليمين: شكري خليل، علوان أبو العلا، عبد السميع وهدان، مطاوع درويش، عبد القوى الدباغ.

- تشرفنا يا رجالة.. وإن شاء الله نقضي مع بعض وقت كويس، وإن شاء الله نخلص شغلنا على خير.

ابتسم عيسى وخرج ليتفقد صوت الرعد المتكرر.

تدخل عبد النعيم:

- بلاش خروج يا باشمهندس دلوقتِ علشان البرق والرعد.

- ما تخافش يا عم العليم، أنا متعود على كدا.

قال حسن بضحكة عالية:

- باشمهندس عيسى مش ممكن يسمع صوت الرعد أو يشوف البرق وما يخرجش يتأمل.

وفعلًا خرج عيسى يتأمل الطبيعة في هذا المكان حيث الجبال الشاهقة والرمال الناعمة، وحيث البرق يرسم لوحة فنية على قمة الجبل، كان عيسى كعادته يتخيل شكلًا لتلك الصورة الجمالية.. عاد عيسى بخياله إلى الليلة التي رأى فيها القطة في المقهى وما رآه في عينيها، محدثًا نفسه أكان ما رآه وهمًا كما تعوَّد أن يرى منذ أن كان طفلًا صغيرًا في القرية، أعادت تلك الهلاوس تراودني أم إنه خيال مفكر؟ ظل عيسى يحدث نفسه كثيرًا وهو ينظر إلى أعلى الجبل متأملًا تلك اللوحة الفنية الرائعة التي ترسمها الطبيعة في هذا المكان العجيب.

وإذا به تقع عيناه على صورة مرسومة لفتاة جميلة على قمة الجبل، وكأن البرق قد رسمها في ذلك الشكل الجميل. ولكن الغريب أن الصورة كانت تبدو متحركة وكأنها تنظر إلى عيسى.. وكأنها تريد أن تخبره بشيء ما. كانت تدنو ثم تبتعد ثم تدنو ثم تبتعد، بدا على عيسى التعجب وأخذ يفرك عينيه.

- هي هتبتدي بهلاوس ولا إيه؟ مش كفاية اللي حصل في القهوة؟ أنا غالبًا كدا محتاج دكتور نفسي.

وبعد أن همَّ أن يدخل غلبته الرغبة، فعاد ثانية ينظر إلى صورة تلك الفتاة الفاتنة، فقد أبى أن يترك ذلك المنظر الجميل والعجيب، حتى إن كان خيالًا يرسمه ليس له وجود، حتى إن كان وهمًا يأخذه إلى طريق المجذوبين. لمَ لا تكون ثمة رسالة تود أن ترسلها إليه السماء؟ ولمَ لا يكون خبرًا أريد أن تخبره به الطبيعة.

ربما تكمن رسالة غامضة في تلك الآية الكونية الغامضة، هكذا ظلت تحدثه نفسه وتأخذ بيده إلى ذلك العالم الغامض والمجهول، فربما كان في ذلك الغموض الحل السحري لكل ما أعانيه.

رأى عيسى الفتاة وكأنها تتحول إلى حالة من الحزن والشجن والكآبة. ثم مدت يدها تجاهه وكأنها تستغيث، علت علامات الحيرة والتعجب على وجهه. وبدأ يتمتم:

- معقول تكون كل دي تهيؤات.

بدأ عيسى يسمع صوت الرعد وكأنه ينادي بصوت خافت:

- يا عيسى.

انتاب عيسى القلق على قواه العقلية. في تلك اللحظة خرج حسن ليطمئن على عيسى وهو يرتدي كوفية سوداء يكاد لا يظهر وجهه منها.

- إيه يا باشمهندس مش كفاية كدا برق ورعد. يلا ندخل الجو النهارده صعب أوي.

التفت عيسى إلى حسن.

- استغفر الله العظيم، يا عم خضتني إيه اللي أنت عامله نفسك دا؟!

- أنت مش شايف الجو عامل إزاي، أنا مش عايز أموت هنا.

- الحذر لا يمنع القدر يا حسن، لو هتموت مفيش حاجة تمنعك.

- أنا عارف، بس برضه ما أموتش هنا يا عم، أنا عايز أتجوز الأول.

- أنت عارف يا حسن إزاي بيحصل البرق والرعد؟

- أكيد تفريغ الشحنات الكهربائية الموجودة في السحب.. والبرق يسخن الهوا فيتمدد فيعمل صوت البرق.. دا اللي درسناه.

- أنت عارف يا حسن إن البرق دا بيسهل عمليات التنجيم.

- عارف يا باشمهندس.

- عارف كمان إنه بيحول الأكسجين لأوزون وبيعمل انتعاش كدا للواحد.

- لا دي مش عارفها. دي معلومة جديده عليَّ. بس برده البرق دا ممكن يموت يا باشمهندس.

- طيب الشحنات الكهربائية دي مش ممكن تعمل تغيير في المزاج أو التخيل. زي يعني كدا كأنك أخذت سيجارة حشيش مثلًا؟

رد حسن ضاحكًا:

- لا دى محتاجة لأبحاث جديدة بقى، نبقى نعملها أنا وأنت، أنت تشتغل على البرق وأنا هشتغل على الحشيش.

- هو أنت دايمًا تقلب كل حاجة هزار!

- عشان الوقت يعدي يا باشمهندس، دي فلسفة أنا اللي اخترعتها، إني ما أديش فرصة لأي حاجة تضايقني؛ اقلب أي حاجة هزار هتموت من نفسها، إنما لو ركزت فيها وأخدتها جد هتتحول جواك لكابوس يمكن ما تقدرش تعيش منه، كل شيء نسبي يا باشمهندس، وبيتحول لحقيقة جواك حسب رؤيتك له وتقديرك لأهميته.

- والله عندك حق يا حسن، احنا جوا كل واحد فينا قاموس بيترجم الأحداث حسب الذي متسجل جواه.

دخل عيسى مع حسن إلى الاستراحة، ولكنه كان شارد الذهن ودخل إلى غرفته دون أن يتكلم مع أحد، وليس في ذهنه سوى تلك

الصورة التي رآها، ووجه تلك الفتاة الذي لم يغب عن مخيلته طوال الليل.

مضى الليل ثقيلًا على عيسى، ومع بداية نسمات الصباح استيقظ عيسى قبل بقية العمال، وخرج ليرى الجبال في المنطقة المهيئة لاستخراج الذهب. لم ينسَ عيسى أن ينظر إلى الجبل لعله يرى وجه تلك الفتاة، ولكن كيف يحدث ذلك والجو كان مشرقًا. عاد عيسى إلى الاستراحة ليجد البقية قد استيقظوا ويستعدون للإفطار.

- يلا يا باشمهندس عشان تفطر.

- حاضر يا حسن، تمام نفطر وهنزل أنا وشكري وعلوان نعمل بحث كدا في المنطقة الشرقية وهتنزل أنت يا باشمهندس حسن مع عبد السميع ومطاوع للبحث في المنطقة الغربية.

وإذا بشكري ينتفض من على الكرسي.

- تمام يا باشمهندس والحمد لله الجو النهارده كويس هيساعدنا كتير.

استمع عيسى وهو حزين، فقد كان يتمنى أن يستمر البرد والبرق ليرى ما رآه بالأمس.

خرج عيسى مع شكري وعلوان لتفقد الجبال التي تصلح

لاستخراج الذهب.

- احنا نزلنا قبل كدا كذا مرة يا باشمهندس. وأنا شايف إن

الدهب هنا شحيح، وغالبًا هيبقى متركز في الجبل دا.

وأشار إلى أحد الجبال.

- أدينا بنحاول يا عم علوان. بس الشركة حاطة أمل كبير على

المنطقة دي...

وأكمل:

- شايفين الجبل دا.

وأشار إلى جبل على مرمى البصر.

- أنا شايف إن نسبة الدهب في صخوره كبيرة جدًّا.

- عرفت إزاي يا باشمهندس؟

- دا سر المهنة يا شكري. احنا إن شاء الله هنبدأ عملية التفجي

بكرة غالبًا...

ثم استطرد:

- بس عبد القوى يجهز.

ضحك الثلاثة وهم يستعدون للعودة إلى الاستراحة بعد ساعات من البحث بين الجبال. وكعادته في حماسه واندفاعه عبر شكري عن سعادته بما رآه من خبرة عيسى في البحث.

- أنا ما شفتش مهندس تاني في خبرتك يا باشمهندس عيسى، أنا بصراحة اتعلمت منك كتير.

- شكرًا يا شكري بس مش للدرجة دي

- لا والله يا باشمهندس دا أكتر من كدا كمان.

- شكري بيحب يتعلم يا باشمهندس، وأنت بسم الله ما شاء الله شاطر.

- شكرًا يا علوان، بس ربنا يوفقنا إن شاء الله.

وصل الثلاثة إلى الاستراحة وكان قد سبقهم إليها حسن وعبد السميع ومطاوع، أتى الليل بما كان عليه في البارحة، إذ تحول الطقس إلى البرودة والمطر، ثم بدأ صوت الرعد يلفت انتباه عيسى ليخرج مسرعًا نحو هدفه الذي ينتظره من البارحة وهو يهيئ نفسه لرؤية ذلك المشهد. نظر عيسى إلى أعلى الجبل لعله يرى فتاته التي أخذت كل تفكيره، وكمثل ما حدث في البارحة يرى عيسى صورة

الفتاة نفسها، لكنها في هذه المرة كانت ترقص حول خيوط البرق
اللامعة، لكنها لم تنظر إلى عيسى هذه المرة. أشار عيسى بيديه في اتجا
الفتاة لعله يلفت انتباهها، ولكنها لم تنظر إليه في حين كانت ترقص
وتنظر إلى السماء، وكأنها خرجت من لوحة فنية بديعة، وكأنها صور
بُثَّتْ فيها الروح.

ظل عيسى ينظر إليها بإعجاب شديد، لكنه كان يتمنى لو تحدث
أو حتى تنظر إليه. ظلت الفتاة ترقص وتنظر إلى السماء متجاهل
عيسى.

اختفت الفتاة من المشهد وظل عيسى يحرك عينيه في كل اتجا
ليرى الفتاة، لكنه هذه المرة رأى القطة التي كان قد رآها في المقهى
قطة سوداء بعينين لامعتين تنظر إليه وفي عينيها رأى شيئًا عجيبً
رأى الفتاة في عين القطة محبوسة تحاول الخروج لكنها لا تستطيع أ
تمد يدها إلى عيسى، وكأنه الملاذ والمنقذ مما هي فيه، دقائق معدو
واختفت القطة من المشهد، ثم بدأت تظهر صور ثنائية الأبع
لفتيات تنظر في اتجاه واحد كأنهن ظل لأشياء تأتي من بعيد
يستطيع أن يرى منها شيئًا إلا ظلها، ولكنه ظلَّ يشعر وكأنه به رو

لكنها روح محبوسة داخل ذلك الرسم تود لو تتحرر مما هي فيه لكنها لا تستطيع. ذكَّر ذلك المشهد عيسى بالجاثوم الذي كان يطبق على صدره وهو لا يستطيع أن يتحرر ولا حتى أن يصرخ طالبًا النجدة.

تمر دقائق أخرى وتختفي الفتيات ويهم عيسى أن يعود إلى الاستراحة، إلا أنه يرى في الأفق خيالًا لشخص لم يستطع عيسى تحديد هوية هذا الخيال، لكنه أدرك أنه لا يمكن أن يكون لبشر، إذ لا يوجد خيال بشري بأبعاد ثلاثية. كان هذا الشخص يشير إلى عيسى ويضحك ضحكات عالية ثم اختفى.

عاد عيسى إلى الاستراحة وهو ما بين شعور الحيرة والحزن والقلق، هل ما يراه حقيقة أم إنه ضرب من الخيال، أم إنه قد أصابه الجنون بحق، فهذا ما كان يتوقع أن يحدث له في يوم من الأيام.

ظل عيسى يفكر؛ ما هذا الذي يراه ولماذا لم تنظر إليه الفتاة في هذه المرة كما فعلت البارحة؟ والفتيات المحبوسات وهذا الكائن الغريب؟ ولماذا كان يضحك بهذه الطريقة؟

كلها أسئلة جعلته لا يستطيع النوم في تلك الليلة الصعبة. قرر
عيسى أن يذهب إلى أحد الأطباء النفسيين بعد عودته من تلك
الرحلة.

حاول عيسى الاتصال بصديقيه ليحكي لهما عن تلك التجربة
ولكن دون جدوى، فلا توجد إشارة في هذا المكان.

تمر الليلة كسابقتها على عيسى؛ ثقيلة وطويلة. قضى معظمها
مستيقظًا يفكر فيما رأى وفيما يمكن أن يراه، أهو حقًّا مريض ويحتاج
إلى العلاج، أم إنه قادر على أن يرى ما لا يراه الآخرون.

يبدأ يوم جديد في المنجم ثقيلًا على كل من فيه. نادى عيسى
العمالَ:

- يلا يا جماعة هنبدأ النهارده تفجير جبل أ.

ثم أكمل:

- جهز نفسك يا عم عبد القوى.

- جاهز يا باشمهندس.

- معانا يا باشمهندس حسن إن شاء الله.

- تمام يا باشمهندس.

توجه الجميع إلى الموقع المستهدف للتفجير باستخدام الديناميت.

- يلا يا عم عبد القوى جهز نفسك ويلا يا رجالة كل واحد ياخد ساتر.

واستطرد:

- ابدأ التفجير.

وفعلًا بدأ عبد القوى عملية التفجير، لكنها هذه المرة لم تكن كسابقاتها، فالصوت أقوى من كل مرة وكأنه صوت القيامة، والجبال تتهدم وكأنها كتلة من ورق، والرمال تتطاير تعمي العيون، والأغرب كان ظهور تلك الغمامة الغريبة التي انتشرت في المكان وغطت الأفق كله عازلة المكان عن كل العالم، وكأنك تحيا في كوكب آخر غير الأرض، فلم تعد السماء مرئية ولا ما يميز الأرض ظاهرًا.

ساد الصمت المكان وبدا التعجب على وجه الجميع. لم يقطع الصمت إلا صوت حسن:

- إيه دا يا باشمهندس عيسى، أنا أول مرة أشوف المنظر دا.

- وأنا كمان، بس لازم نتصرف مع الموقف دا بعقل.

ثم استطرد:

- يلا يا رجالة نمشى من هنا وبعدين نشوف هنعمل إيه.

وفعلًا تحرك الجميع عائدين من حيث كانوا. وصلوا إلى

الاستراحة والغمامة فوقها لم تختفِ على مدِّ البصر، سادت الحيرة بين

الجميع، حتى قطعها عيسى:

- يلا نتحرك يمكن نجيب آخر الغمامة دي من أي اتجاه نقدر

نمشى فيه.

تحركوا جميعا إلى أقصى مسافة استطاعوا مشيها، ولكن الغمامة

تنتهِ، وكأنها أصبحت سماءً غير السماء من فوقهم.

بعد أن ضاق بهم الحال وضاع الأمل في أن يجدوا نهاية لما هم فيه

ناداهم عيسى:

- يلا نرجع لأن احنا كدا هنتوه في الصحراء وواضح إن مفيش

نهاية.

عاد الجميع إلى الاستراحة بعد أن نالهم التعب والإرهاق والحي

مما يحدث لهم في هذا المكان العجيب، فكيف للسماء أن تختفي وكي

تحول العالم كله إلى تلك البقعة المظلمة، فقد أصبحوا في شبه ظلام سرمدي.

وصلوا إلى الاستراحة وفي انتظارهم عبد العليم الذي لم تبدُ عليه أي علامة من علامات الدهشة والتعجب.

- تعالوا يا رجالة استريحوا باين عليكم الإرهاق والتعب.

صرخ شكري وهو تبدو عليه علامات التعب الشديد:

- أنت مش شايف اللي حصل يا عم عبد العليم، دي كأن القيامة قامت.

- دا قضاء الله ولا راد لقضائه يا ابني.

ثم استطرد:

- نصبر وإن شاء الله حلها عند ربك.

لأول مره يبدو حسن متوترًا لهذه الدرجة.

- يلا نتصل بالشركة أكيد فيه عندهم حل.

حاول عيسى الاتصال.

- دا مفيش شبكة أصلًا، حتى الشبكة اختفت.

صرخ علوان بصوت يملؤه الخوف:

- لا ما احنا مش هنموت هنا كدا.

- اهدا يا علوان علشان نعرف نفكر هنعمل إيه، أنا هنا مسؤول

عنكم، التوتر هيلخبطنا أكتر ومش هنعرف نفكر.

تدخل مطاوع متعجبًا:

- فيه حاجة غريبة يا باشمهندس، المفروض إن الليل دخل

والدنيا ما ضلمتش ولا حاجة، هي الغمامة بس لا احنا في نهار وا

احنا في ليل، دي حتى الساعة وقفت مش شغالة.

بدا الانزعاج على الجميع حتى صرخ حسن:

- فيه إيه؟ إيه اللي بيحصل؟

ينظر في يده.

- فعلًا الساعة وقفت، إزاي ما خدناش بالنا من الموضوع دا!

- أنا السبب يا باشمهندس، أنا اللي فجرت الديناميت.

رد عيسى محاولًا تهدئة الرجل والتخفيف عنه:

- اهدا يا عم عبد القوى، هو احنا أول مرة نفجر ديناميت.

ثم استطرد:

- الموضوع أكبر من قصة الديناميت دي، الموضوع أصلًا ما لوش أي تفسير علمي، أنا حاسس إني بحلم.

وفي تلك اللحظة بكى عبد السميع بصوت مسموع.

- أنا حاسس إني مش هشوف عيالي تاني.

وضع عبد العليم يده على كتفه محاولًا تهدئته.

- يا بني اصبر فرج ربك قريب.

من فرط التعب خلد الجميع إلى نوم عميق عسى أن يستيقظوا فيجدوا أنه كان حلمًا كئيبًا يستيقظون منه ويعودون إلى ما كانوا عليه قبل ذلك الكابوس الذي جثم على صدورهم.

استيقظ الجميع بعد سبات عميق على نفس حال أهل الكهف، لكن من دون الحجارة، فلا الغمامة انقشعت ولا الشمس عادت، فلا ليل ولا نهار ولا معرفة إلى أين المصير.

ذهب عبد العليم إلى عيسى في غرفته وهو واضع يده على عينيه مستسلمًا، لا يدرى ماذا يفعل.

- استعِن بالله يا بني، ادعي له يفرج كربك وكربنا.

- ونعم بالله يا عم عبد العليم، أنا بس مش مستوعب اللي حصل ومش قادر أتخيله.

- أي حاجة بتحصل لنا مكتوبة لنا من قبل ما نتولد، وحاجات كتير بتحصل علشان احنا نستاهلها، هوِّن على نفسك يا باشمهندس، ويلا عشان تاكلوا أنتم بقالكم كتير ما أكلتوش.

- هو فيه حد له نفس ياكل يا عم عبد العليم.

- لازم تاكل عشان تقدر تكمل وتشوف حل للمشكلة اللي احنا فيها.

خرج الجميع بعد تناول الطعام تاركين عبد العليم في الاستراحة لعلهم يجدون حلًّا لتلك المشكلة.

توجه عبد السميع إلى عيسى.

- هنمشي في أي اتجاه يا باشمهندس.

رد علوان بتشاؤم شديد:

- يعني هي هتفرق ما الدنيا كلها زي بعضها.

- هنمشي في اتجاه الطريق اللي جينا منه، جايز نلاقى عربية معدية ولا حاجة.

وفعلًا مشوا في اتجاه الطريق، طال الوقت والمنظر نفسه. غمامة لا تختفي ولا يوجد أثر لأي حياة سوى الجبال والصحراء والغمامة.

من فرط التعب والإرهاق وعدم وضوح الرؤية صرخ مطاوع:

- رجلينا ورمت يا باشمهندس ومفيش فايدة لازم نرجع لأننا كدا هنموت.

رد عليه مطاوع محاولًا التخفيف واستدعاء الأمل:

- أكيد في الشركة هيجوا يدوروا علينا مش هيسيبونا نموت في الصحرا.

عاد التشاؤم مره أخرى مع صرخة شكري:

- مش لما يعرفوا يوصلوا لنا دا احنا برة الدنيا، والظاهر إن مفيش أمل إننا نرجع من هنا.

نظر الجميع إلى بعضهم بعضًا نظرات يائسة ومحبطة قبل أن يعودوا إلى الاستراحة منهكين ومتعبين ومحبطين.

من فرط التعب نام الجميع مستسلمين حتى إن كان هذا هو النوم الأخير.

استيقظ عيسى قلقًا على حاله وحال من معه والجميع نائمون.

خرج أمام الاستراحة محبطًا، لكنه كان ينظر إلى أعلى لعله يجد مخرجًا، فإذا بالفتاة نفسها تظهر في الأفق تتمايل يمينًا وشمالًا وتنظر إليه وهي تبتسم، وتمد يدها إليه في عطف غريب، ولكن في هذه المرة كانت ملامح الفتاة أكثر وضوحًا لعيسى، فبدت وكأنه يعرفها لكنه لا يستطيع تذكر أين ولا متى، وكأن الذاكرة تعانده كما تعانده الطبيعة.

أغمض عيسى عينيه بيديه مدة وجيزة محاولًا التركيز بكل طاقته ليعرف أين رأى تلك الفتاة ولكن دون جدوى.

فتح عينيه لينظر إليها فإذا بها تختفي من المشهد تاركة إياه في غاية الإحباط، لا يدرى ماذا يفعل.

أخذ عيسى يحدث نفسه بصوت مسموع:

- أنا اتجننت ولا دا مس ولا إيه اللي بيحصل، وإيه التفسير لكل دا.

وبصوت عالٍ:

- يا رب يا رب.

بعد اليأس من عودتها دخل عيسى إلى الاستراحة، فإذا بعبد العليم جالس مع ضوء شمعة.

- استعِن بالله يا باشمهندس، إن شاء الله تفرج.

- أنا مستغرب يا عم عبد العليم أنت إزاي مش خايف وقلقان من اللي احنا فيه دا؟!

- اللي معاه ربنا ما يخافش يا بني (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا).

- ونعم بالله يا عم عبد العليم.

ثم أكمل

- فيه أكل وميا يكفوا قد إيه يا عم عبد العليم؟

- حوالي أسبوعين والمفروض التموين يجي بعد 10 أيام.

- على الله يعرفوا يوصلوا لنا.

- ما هو المكان ما اتغيرش يا بني، هي بس الغيامة دي وإن شاء الله ربك يزيحها.

شعر عيسى ببعض الراحة من كلامه مع عبد العليم.

- معلش يا عم عبد العليم صحِّي الناس تاكل، ونقعد نتكلم مع بعض شوية.

استيقظ الجميع وجلسوا يأكلون، ثم تجاذبوا أطراف الحديث لتخفيف ذلك الشعور الصعب بالوحدة والخوف.

بدأ حسن يتمالك نفسه إلى حد ما مع عودة مؤقتة لروحه المرحة.

- مش فيه شاي يا عم عبد العليم، بس يا ريت بالحشيش عشان ننسى.

ردَّ عم عبد العليم بعد ضحكة وقورة:

- فيه يا باشمهندس، هعمل لكم حاضر.

جلس الجميع في استقبال الاستراحة مع ضوء الشموع، ولطبيعته القلقة دائمًا صرخ شكري:

- إيه اللي احنا فيه دا، أنا حاسس إن أنا بحلم.

ثم سكت لحظة وأخذ نفسًا عميقًا ثم استطرد:

- ولا احنا عملنا حاجة وحشة في حياتنا وربنا بيعاقبنا عليها؟

- يا بني دا قضاء ربنا، والصبر على القضاء واجب، وإن شاء الله ربنا هيحلها من عنده.

صرخ علوان أيضًا:

- يعني احنا نسيب عيالنا وأهلنا ونيجي نموت هنا.

ثم استطرد:

- أنا يمكن عملت حاجات غلط كتير بس والله عمري ما كرهت حد ولا عمري خنت. أنا بس مشكلتي إني عصبي شوية بس والله بنزل على مفيش.

رد عبد السميع وهو يكتم دموعه، وكان عبد السميع يميل إلى الاكتئاب لطبيعة نشأته وحياته الصعبة:

- وإيه يعني، حتى لو متنا هنا، ساعات الموت بيبقى رحمة، والدنيا مش حلوة أوي علشان نمسك فيها بإيدينا وسنانا.

ثم تنهد وبكى ثم أكمل:

- أنا شفت في حياتي حاجات لو حد شافها كان موِّت نفسه، كفاية مراة الأب واللي عملته فيَّ وأنا صغير. وكفاية الشقا اللي شفته من وأنا صغير لحد دلوقتِ، ولا لحظة راحة ولا بيت ولا أهل.

تدخل مطاوع في الحوار:

- يا بني طب أنت ما عندكش أهل، احنا عندنا عيال عايزين نرجع لهم.

قال عبد القوى وهو يهم قائمًا:

- إن شاء الله ربنا هيفرجها وهنرجع بيوتنا.

عيسى بعد أن كان سارحًا في أثناء الحوار:

- وأنت يا حسن مش عايز تقول حاجة أنت كمان.

- هقول إيه، هو اللي احنا فيه دا يخلي حد يتكلم. هو أنا بس عايز أسأل سؤال.

ثم تحدث بابتسامة مريرة:

- هو فيه تفسير علمي للي حصل دا؟

- هو مفيش تفسير غير إن يكون الانفجار دا عمل فجوة زمنية.

في تلك اللحظة ترتسم كل علامات التعجب على وجه حسن.

- يعني إيه فجوة زمنية وإيه علاقة الانفجار دا بالفجوة.

ساد الصمت المكان انتظارًا لتفسير هذا الأمر الغريب على أسماعهم.

أخذ عيسى وضع الاستعداد للشرح:

- أنت تعرف مثلث برمودا؟

- طبعًا عارفه، ما هو دا المكان اللي بتختفي فيه السفن وما ترجعش، بس دا إيه علاقته بموضوعنا.

- فيه نظرية اسمها الفجوة الزمنية ودي أسسها آينشتاين. ودي معناها إن فيه طاقة قوية جدًّا ممكن تجذب الأشياء والزمن فيها بيكون مختلف. يعني الوقت اللي احنا فيه دلوقتِ ممكن يساوي 10 سنين مثلًا من الزمن العادي.

ثم أكمل مع صمت الجميع واستعدادهم الفطري لتصديق ما يقوله عيسى.

- يعني الزمن على الأرض مختلف عن الزمن في كوكب الزهرة مثلًا. اليوم على كوكب الزهرة 5832 ساعة، وعندنا 24 ساعة بس، واليوم على كوكب عطارد 1408 ساعة.

أكمل عيسى:

- برضه فيه افتراض لوجود عالم موازي، يعني حياة في أماكن تانية غير الأرض.

سادت الحيرة والقلق المكان من كلام عيسى. لم يقطع الصمت إلا صوت شكري:

- طيب يا باشمهندس إزاي ممكن تكون الفجوة الزمنية دي حصلت معانا.

- ممكن يكون من شدة الانفجار مع حالة السحب ووجود الجبال مع وقت معين من السنة عمل الفجوة الزمنية.

سكت لحظة ثم أكمل:

- بس كلامي دا مجرد افتراض أو يمكن هلوسة من الوضع اللي احنا فيه دا.

تدخل عبد العليم لتهدئة روعهم:

- أنا شايف يا رجالة إنكم تقوموا تصلوا ركعتين لله علشان يفرجها علينا، وبعدين ننام يمكن على بكرة ربنا يفرجها.

وفعلًا نام الجميع باستثناء عيسى الذي خرج يبحث كعادته عن حل في السماء، فهو في داخله يعلم أن الحل لن يأتي إلا من السماء، فالأرض في مثل تلك الحالات أضعف من أن تأتى بحلول.

وقف عيسى أمام الاستراحة ينظر إلى أعلى منتظرًا ظهور الفتاة ليستطيع فك رموز ذلك اللغز اللعين، وفعلًا تظهر الفتاة لعيسى وتناديه:

- عيسى.

- أخيرًا اتكلمتِ. عايزة إيه من عيسى؟

ابتسمت الفتاة.

- دا مش مكانك يا عيسى أنت مكانك معايَ هنا.

- هنا فين؟ وأنتِ مين أصلًا.

- أنا اللي جواك وأنت كتير شفتني قبل كدا بس في أحلامك.

بدأ عيسى يسترجع أحلامه وذاكرته فهو فعلًا قد رأى هذه الفتاة، لكنه لم يكن يدرك أين ومتى رآها ربما فعلًا يكون قد رآها في أحلامه، ولكنه لم يرَها في الواقع مطلقًا.

كانت تلك الفتاة تتكرر كثيرًا في أحلام عيسى، لكنه لم يكن يعلم المغزى من ظهورها في أحلامه، فهو كثيرًا ما كان يرى أشخاصًا وأشياء في أحلامه لا يدرك لها مغزى.

قطعت الفتاة تفكيره:

- فاكر آخر حلم يا عيسى شفتني فيه وكنت بتغرق وأنا اللي أنقذتك من الغرق، من بعديها ما شفتنيش خالص.

- طيب دي كانت أحلام وصورة في خيالي يعني مش حاجة حقيقية، إزاي بقى أشوفها وأكلمها وتكلمني.

- ومين قال لك إن احنا ما عشناش مع بعض قبل كدا في عالم تاني غير العالم اللي أنت فيه.

- الكلام اللي أنت بتقوليه دا غير واقعي ومش معقول إنه يحصل أصلًا.

- إزاي، مش ممكن يحصل وأنت لسه مكلم الناس اللي معاك عن إمكانية إنه يحصل.

تمكن العجب من عيسى وظن أنه يحلم فعلًا، وأخذ يفرك عينيه ليتأكد من أنه مستيقظ.

- أنت صاحي يا عيسى وواقف قدام الاستراحة مش نايم ولا حاجة.

- يعني أنا كنت عايش قبل كدا في عالم تاني؟!

- آه طبعًا وأي حاجة موجودة في حياتك دلوقتِ أنت شفتها في حلم أو في خيالك أنت عشتها قبل كدا فعلًا.

- طيب أنا ليه موجود في الدنيا دي دلوقتِ وأنت مش موجودة؟

- علشان أنا موجودة في عالم تاني دلوقتِ.

- طيب إزاي أنت في عالم تاني وبتتواصلي معايَ كدا.

- عشان أنا دورت عليك يا عيسى وتعبت جدًّا علشان أوصل لك، إنما أنت ما دورتش عليَّ.

- طيب إزاي أنا هدور عليكِ وأنا مش فاكرك أصلًا، ومش عارفك، يعني مش موجودة في ذاكرتي.

- فيه حاجات يا عيسى مش ممكن تنساها الذاكرة وحاجات تانية بتتنسى بسهولة.

ثم أكملت وهي تهم أن تبكي:

- الحب اللي بجد ما يتنسيش يا عيسى، أنا عشان حبيتك بجد ما نسيتكش، لدرجة إنك أصبحت جزء من تكويني، الجزء اللي بيه تكمل حياتي ومن غيره أبقى مش أنا.

ثم أكملت وهي تبكي:

- أنت أنا يا عيسى.

ثم صمتت للحظات ثم أكملت:

- علشان كدا دورت عليك ووصلت لك، إنما أنت حلمت بيَّ بس كنت بالنسبة لك مجرد حلم، إنما أنت كنت ليَّ الحقيقة، كل الحقيقة يا عيسى.

سيطر العجب على عقل عيسى ووجدانه وحاول الوصول إلى نهاية لهذا الأمر.

- طيب أنا لو عايز أبقى معاكِ أعمل إيه؟

- عايز تبقى معايَ بجد يا عيسى؟

- آه، وعايز أعرف الحقيقة، أنا فعلًا كنت معاكِ ولا اللي بيحصل دا كله وهم، وإيه العالم اللي احنا كنا فيه مع بعض دا. وأنتِ اسمك إيه؟ وليه مش بتنزلي على الأرض؟

- كل دي أسئلة يا عيسى، طيب مش فاكر أنا كان اسمي إيه لما كنا بنتقابل في الحلم.

- أنا للأسف مش قادر أفتكر أي حاجة ،أنا فاكر إني شفتك، بس مش قادر أفتكر أي تفاصيل، كأن الذاكرة اتمسحت.

صمت عيسى للحظات متذكرا شيئًا ما:

- أنا فاكر إن أنا قلت لك مرة الحقيني، بس مش فاكر التفاصيل.

- طيب فاكر كنت بتقول لي الحقيني يا إيه؟

عاد عيسى للصمت محاولًا التذكر.

- آه افتكرت، كنت بقول: الحقيني يا وعد.

- آه يا عيسى اسمي وعد.

ثم أكملت

- أنا مش بنزل على الأرض علشان أنا مش من أهلها، وانت كمان يا عيسى ما كنتش من أهلها.

- وإيه العالم اللي احنا كنا فيه مع بعض.

- كان عالم أحسن من عالم الأرض بكتير يا عيسى، بس للأسف الحاجات الحلوة مش بتستمر، كل حاجة حلوة بنعيشها عمرها قصير يا عيسى.

- طيب ليه أنت رحتِ في عالم وأنا في عالم تاني؟ ليه ما فضلناش مع بعض؟

- علشان دا القدر، مش احنا اللي بنختار، لو كان في إيدي كنت كملت معاك على طول يا عيسى.

- طيب إزاي أوصل لك؟

- فكر يا عيسى، احنا ممكن نختار الوصول بس ما نقدرش على تمنه.

- وإيه هو التمن؟

اختفت الفتاة من الفضاء.

وصرخ عيسى بأعلى صوته:

- أنت رحتِ فين؟ رحتِ فين؟

دخل عيسى إلى الاستراحة وهو يحمل همومًا ثقالًا على عاتقه. وجلس في غرفته محاولًا تذكر الأحلام التي رأى فيها وعد، وهل رآها في الواقع أم لا، قضى عيسى ليلته في محاولة التذكر. حتى تذكر أنه بعد كل مرة كان يحب فيها فتاة كان يرى حلمًا لفتاة أجمل تصرفه عن حب تلك الفتاة وكانت ملامحها قريبة من ملامح وعد أو ربما

هي التي كانت تظهر له في الأحلام الفتاة التي أعجب بها، حتى إذا استيقظ نسي تلك الفتاة. وكان تفسير عيسى في ذلك الوقت أنه عقله الباطن يصرفه عن علاقات لن يكون كفؤًا لها أو لن يكون سعيدًا فيها، فقد كان دائم الخوف من الدخول في علاقة عاطفية ولم تكن عنده الثقة اللازمة لبداية علاقة عاطفية مع فتاة. فقد كان عيسى شخصًا محبًّا، لكنه كان يخجل أن يعبِّر عن حبه، وربما كان يخاف أن يبدأ علاقة خوفًا من الهجر أو من نهاية لا يرغب فيها، فقد كان شخصًا لا يعرف من الألوان إلا الأبيض والأسود في حياته وفي علاقاته.

في تلك اللحظة بدا عيسى يشك في وجود وعد وأنها لا تتعدى وسيلة من عقله الباطن للتخلص من الضغوط أو المساعدة في إيجاد حلول للمشكلات الصعبة، فهي لم تكن تظهر في أحلامه إلا للمساعدة أو بالأحرى للهروب من الأشياء التي كان لا يستطيع التعامل معها. أضفى هذا التفسير بعض الراحة على قلب عيسى وعقله.

مرت الليلة عليه وهو حتى لا يعرف إن كان ليلًا أو نهارًا.

استيقظ الجميع بعد نوم يملؤه القلق، وتجمعوا ليروا ما يمكن أن يفعلوه وما يمكن أن يحدث لهم في ظل تلك الظروف التي تشبه في مخيلتهم يوم القيامة.

بدأ الوقت يمر عصيبًا على الجميع، وأصعب على عيسى، إذ بدأ مخزون الماء والطعام ينفد، وبدأت القوى تنهار لدى الجميع، وبدأ الضعف يظهر عليهم جميعًا.

توجه حسن إلى عيسى وهو متعب ويكاد يجر قدميه.

- يا عيسى احنا دايمًا بنمشي في اتجاه واحد، طيب ما نجرب نمشى في اتجاه الجبل اللي اتفجر، يمكن يكون فيه حاجة جديدة.

استجاب الجميع لعدم وجود بدائل أخرى، وبدأوا التحرك تجاه الجبل المتفجر وهم يجرون أقدامهم في الرمال مع إحساسهم أنها النهاية لا محالة، وإذا بشكري محركًا يديه بغضب:

- إيه العيشة اللي ما فيهاش ليل ولا نهار دي، أنا تعبت ومش قادر لو هنموت نموت بقى ونخلص.

وضع عبد القوى يده على كتفه.

- بلاش الكلام دا يا شكري، احنا مش ناقصين، كفاية اللي احنا فيه.

وعندما وصل الجميع إلى الجبل وجدوا شيئًا عجيبًا، وجدوا كميات كبيرة جدًّا من الذهب المتناثر حول الجبل، حتى إنه لا يحتاج إلى استخلاص، وهنا علا وجه الجميع العجب، ما هذا الذي يرونه وكيف حدث ذلك أم إنه مجرد خيال من فرط التعب.

بادر عيسى بالكلام:

- أنتم بتتعجبوا من إيه؟ هو فيه عجب أكتر من اللي بيحصل لنا داكله.

نسي حسن التعب والإرهاق وبدأ متحفزًا:

- الدهب دا يخلينا مليونيرات طول العمر.

- آه والله يا باشمهندس دا يخلينا ما نحتاجش حاجة طول عمرنا.

وهنا بكى عبد السميع:

- وهو فين عمرنا دا، أنت فاكر إنك هتخرج من هنا؟

- صحيح احنا بنفكر في إيه! احنا عارفين احنا هنخرج من هنا ولا لا!

تدخَّل عيسى لتصحيح الأمور:

- حتى لو خرجنا من هنا الدهب دا هيروح الشركة، دا شغلنا.

ثم أكمل:

- احنا جايين هنا أصلًا علشان نطلع الدهب دا.

بدأ حسن يتكلم بانفعال شديد:

- بس اللي بيحصل دا يا باشمهندس مش طبيعي، مفيش دهب بيطلع بالطريقة دي، ولا اللي احنا فيه دا طبيعي، ولا الغيامة دا شيء طبيعي، ولا غيابنا عن الدنيا شيء طبيعي.

- خلينا نفكر الأول في اللي احنا فيه يا حسن.

احنا وصلنا للجبل والغمامة زي ما هي وكأنها سد يأجوج ومأجوج بيعزلنا عن بقية البشر، ودا معناه إن الشركة صعب توصل لنا.

بدأ صراع بين الجميع بخصوص أحقيتهم في الذهب، وبدأ شد وجذب مع انهيار في القوة لدى الجميع.

في وسط ذلك الصراع عديم القيمة تركهم عيسى وتحرك تجاه الفتاة لعلها اللحظة الأخيرة للموت أو النجاة.

لم يلاحظ أحد رحيل عيسى، فقد كانوا مشغولين في الكلام عن الذهب ومدى أحقيتهم فيه.

وصل عيسى مرهقًا ومتعبًا جدًّا إلى الاستراحة ووقف أمامها ينظر إلى أعلى، لعل الفتاة تأتي ومعها طوق النجاة، فإنها اللحظات الأخيرة بين الحياة والموت وبين عالم وعالم آخر.

وفي تلك المرة نادى عيسى بصوت يملؤه الضعف وكأنه يناجي السماء:

- أنت فين يا وعد.. أنت فين يا وعد. أنا ما بقيتش عارف أنتِ حقيقة ولا خيال.. طيب أنا حقيقة ولا خيال.. طيب اللي معايَ دول حقيقة ولا خيال.. طيب يعني إيه حقيقة ويعني إيه خيال.. أنا بقيت مش فاهم حاجة. طيب أولادي حقيقه ولا خيال.. ومراتي حقيقة ولا خيال.

وأوشك أن يغمى عليه. في تلك اللحظة ظهرت الفتاة ونادته:

- أنا هنا يا عيسى، علشان أنا قدرك.

قال عيسى وهو يلملم قوته حتى يستطيع الكلام:

- طيب جاوبيني أنا تعبت، وما عدتش قادر أستحمل.

- اطلع الجبل يا عيسى، هو دا المخرج الوحيد من اللي أنت فيه.

- إزاي أطلع الجبل دا أنا حتى مش قادر أقف.

- حاول يا عيسى، مفيش حل تاني.

- طيب والناس اللي معايَ؟

- أنت كدا بتنقذ نفسك وبتنقذهم معاك.

ثم أكملت:

- ما تبصش وراك يا عيسى.

بدأ عيسى يستجمع قواه الضائعة حتى يتمكن من الصعود وبدأ يزحف باتجاه الجبل وبدأ في عملية الصعود ورغم الصعوبة الشديدة تمكن عيسى من الصعود إلى قمة الجبل. وما إن وصل عيسى إلى قمة الجبل تجول بعينيه بعيدًا فإذا بانقشاع تلك الغمامة المرعبة وإذا بالشمس تشرق من جديد، وإذا بالأمل يشرق مرة أخرى في قلب عيسى، وتحدث إلى نفسه:

- معقولة هرجع للدنيا تاني، معقولة أشوف مراتي وولادي

تاني.

ثم انتبه إلى شيء يجول بخاطره:

- طيب ووعد.

ونادى بصوت عالٍ:

- أنت فين يا وعد.

ولكن في هذه المرة لم يأتِ الجواب، فقد اختفت وعد من المشهد فجأة كما ظهرت.

بدأ عيسى في النزول من الجبل وقد أصابه من التعب والإرهاق ما أصابه، وعندما وصل إلى الأرض أصبح في حالة تشبه الإغماء، ولكن الأمل قاده إلى أن يصل إلى أول الطريق.

ما إن وصل عيسى إلى أول الطريق أصابه إغماء كامل.

صادف عيسى وهو ملقى على الطريق سيارة مسرعة، فإذا بمرافق السائق يحدثه:

- اركن على جنب يا محمد فيه واحد مرمي على جنب الطريق.

ركن السائق على جانب الطريق وحمل عيسى مع مرافقه إلى داخل السيارة.

- هنعمل إيه دلوقتِ يا باشمهندس؟

- اطلع بسرعة على أقرب مستشفى، دا لسه فيه الروح.

وتوجها بعيسى إلى مستشفى طوارئ على الطريق.

ونزل المرافق بسرعة وتوجه إلى الاستقبال، ونادى موظف الاستقبال بتوتر:

- معلش معانا واحد مغمى عليه في العربية.

توجه العمال بسرعة إلى السيارة لحمل عيسى إلى الاستقبال، ثم وجه موظف الاستقبال حديثه إلى المرافق:

- معلش هناخد منك شوية بيانات.

- احنا لقيناه مرمي على الطريق فجبناه المستشفى.

- معلش شوية بيانات بسيطة.

اسم حضرتك:

- مصطفى إبراهيم عبد الرحمن.

- كان معاك حد في العربية؟

- كان معايَ السواق واسمه محمد السيد عبد الفتاح.

- حضرتك بتشتغل إيه؟

- مهندس وكنت راجع من الموقع ومعايَ السواق بتاع الشركة.

- حضرتك بس هتنتظر شويه على ما نشوف الحالة.

- تمام ويا ريت تطمنا عليه.

بعد انتقال عيسى إلى الاستقبال تبين إصابته بهبوط في ضغط الدم مع ارتفاع في درجة الحرارة مع تفوهه ببعض الكلمات غير المفهومة.

أفاق عيسى بعد مدة من العلاج وعندما أفاق نادى بصوت مجهد:

- أنا فين؟

- اهدا خالص أنت في المستشفى، وأنا الممرضة اللي مع حضرتك.

- إيه اللي حصل؟

- كنت فاقد الوعي على الطريق وعندك هبوط في الضغط.

- طيب أنا جيت المستشفى إزاي؟

- فيه ناس لقيوك على الطريق، جابوك المستشفى.

بدأ عيسى يسترجع الأحداث شيئًا فشيئًا لكنه لم يتحدث مع الممرضة وظل صامتًا.

دخل المهندس مصطفى للاطمئنان على عيسى.

- أنا مهندس مصطفى اللي نقلك للمستشفى، عامل إيه دلوقتِ؟

- شكرًا ليك يا باشمهندس.

- ألف سلامة عليك، بس إيه اللي جابك الطريق دا؟

- كنت في موقع شغل وتهت.

استأذن مصطفى وخرج بعد أن اطمأن على عيسى.

تذكر عيسى شيئًا مهمًّا فنادى الممرضة:

- لو سمحتِ ممكن أكلم الدكتور.

- حاضر، طيب في حاجة ممكن أساعدك فيها؟

- لا رجاءً نادي الدكتور.

نادت الممرضة الطبيب المعالج.

- تحت أمرك.

- أنا مهندس وكنت في موقع تنجيم عن الدهب، وفيه ناس محبوسة في الموقع.

تعجب الطبيب من الكلام وظن أنها هلوسة.

- محبوسين إزاي يعني؟

- هو بس كان فيه انفجار...

قاطعه الطبيب:

- طيب استريح واحنا هنعمل اللازم وهنكلم قسم الشرطة.

وفعلًا استدعى الطبيب ضابط الشرطة وأبلغه بما قاله عيسى، استمع الضابط لعيسى وعرف منه مكان الموقع.

- طيب يا باشمهندس احنا هنعمل اللازم، ما تقلقش عليهم، المهم أنت تستريح.

ظل عيسى في المستشفى ما يقرب من ثلاثة أيام حتى بدأ يستعيد عافيته.

بعد أن استعاد عيسى عافيته، خرج من المستشفى واستقل سيارة أجرة للسفر إلى القاهرة، فقد كان في غاية الشوق لرؤية أولاده

وزوجته، مرَّت عليه ساعات السفر كأنها دهر حتى وصل إلى القاهرة.

وعندما أصبح في شوارعها أحس أن الحياة قد عادت إليه، وكأن الزحام أعاد إليه حياته، وأنه بمجرد أن يرى أولاده سينسى كل شيء حدث له في تلك الرحلة الصعبة.

ظل عيسى في تلك اللحظات يتخيل زوجته وأولاده ومدى سعادتهم بعودته إليهم، وكان يحلم برؤية منزله وأصحابه والمقهى الذي كانوا يجلسون فيه، فما أجمل العودة إلى الأهل والأصحاب بعد غياب كان يظن أن ليس بعده عودة. وتذكر وعد قائلًا لنفسه:

- غالبًا دي كانت إشارة من عقلي الباطن علشان أقدر أرجع.

طرق عيسى باب بيته بشغف وكله حنين إلى رؤية زوجته وأولاده.

كان عيسى يطرق الباب ويضغط الجرس في الوقت نفسه بلهفة المشتاق إلى رؤية من يحب.

وعند فتح الباب كانت المفاجأة صعبة عليه جدًّا، إذ إن من فتح الباب هو صديقه مصطفى وكان بلباس البيت.

- اتفضل يا عيسى.

- اتفضل فين.

ثم أكمل:

- أنت بتعمل إيه هنا يا مصطفى.

- أنا في بيتي، مالك يا عيسى فيه إيه؟

دفع عيسى مصطفى بيده بقوة.

- دا بيتي أنا.

أنت عملت إيه في غيابي؟

وهنا تخرج منى بعد سماعها صوت المشاجرة.

- فيه إيه يا مصطفى.

بدا التعجب على وجه عيسى.

- فيه إيه يا منى، ودا بيعمل إيه هنا.

- عيسى صاحبي ما أعرفش ماله.

قال عيسى وقد أوشك أن يُجن:

- هو فيه إيه؟ دي مراتي وفين أولادي.

ثم أكمل صارخًا:

- أنت اللي بتعمل إيه هنا؟

- طيب اهدا يا عيسى، أنا مصطفى ودي مراتي ودول أولادي، وأنت عمرك ما كنت في البيت دا، أنت يمكن بس تعبان شويه.

كان عيسى بين التعجب والصراخ وكأنها نهاية لتلك القصة المرعبة التي عاشها في المنجم لدرجة أنه من فرط ما رآه من عجب لم يتعجب مما رآه.

خرج عيسى وهو غير مصدق لما يحدث.

- هو أنا مين ولما دي مش مراتي أمال أنا عارفها إزاي، ولما دول مش ولادي أنا عارفهم إزاي؟ طيب اللي حصل في الموقع دا حقيقة ولا خيال، أنا تعبت من نفسي ومن الدنيا واللي فيها.

ثم صرخ بصوت ملأ الفضاء:

- أنا مين، أنا بجد ولا خيال، أنا عايش ولا ميت، دي الدنيا ولا أنا في مكان أنا مش عارفه،

- بس دي الشوارع اللي كنت بمشي فيها قبل كدا، أنا عارفها، ودي القهوة اللي كنت بقعد عليها، معقول كل دا خيال.

كان عيسى يسير في الشوارع لا يدري إلى أين يذهب ولا يشعر بأحد من البشر، وكأنه يسير في فضاء بلا ناس، حتى أغمى عليه من شدة التعب. وفجأة سمع صوتًا يأتي من بعيد يناديه:

- يا عيسى يا عيسى.

وإذا به يستيقظ فيجد نفسه نائمًا على سرير وبجانبه ممرضة، نظر عيسى حوله في كل اتجاه.

- أنا فين؟

التفت عيسى فإذا بفتاة تأتي من بعيد بخطوات مسرعة نحوه وعندما اقتربت منه وجدها تلك الفتاه التي رآها في المنجم.

- وعد! أنتِ إيه اللي جابك هنا وإزاي أنتِ واقفه على الأرض كدا؟!

- أيوا أنا وعد يا عيسى.

زاد التعجب وزادت الحيرة.

- إزاي؟!

- أنا الدكتورة اللي بعالجك يا عيسى.

وضع عيسى يده على صدره ثم وضعها على رأسه ثم وقف على قدميه ثم عاد وجلس على السرير.

- يعني أنا ما شفتكيش قبل كدا وأنت ما شفتنيش من يوم أو اتنين.

وضعت وعد يدها على كتف عيسى وابتسمت له ابتسامه رقيقة.

- أنا كل يوم عندك يا عيسى.

- هو أنا فين؟

- يا عيسى دي مصحة نفسية، وأنت هنا من سنة في شبه غيبوبة، شايف الناس ومش عارفهم، ومش عاوز تعرفهم ومش عاوز ترجع للدنيا، عايش في عالم أنت الذي صنعته لنفسك ومش عايز تخرج منه. كل الناس بتشوفهم خيال وظل مش في صورتهم الحقيقية.

- أنا مش فاهم حاجة، ممكن تفهميني إيه اللي حصل وأنا إزاي جيت هنا؟

- تعالَ يا عيسى نقعد وأنا هحكي لك كل حاجة.

ذهب عيسى معها وهو مستسلم بشكل تام باعتقاد من لا يملك البديل. فهو حتى لا يكاد يعرف من هو ولا من أين أتى ولا حتى ماذا يفعل في ذلك المكان.

وظل عيسى ينظر إلى الغرف والطرقات نظرات تعجب وكأنها سجن ضخم محبوس فيه منذ سنين، وما إن وصل مع وعد إلى الحديقة أحس بشعور مختلف تمامًا، فبدأ يشعر بالحياة وعندما رأى عيسى الشمس مشرقة، نظر إليها وكأنه يراها لأول مرة وكأنها معشوقته التي لم يرها من زمن بعيد.

ظل عيسى معلقًا عينيه بالشمس مدة طويلة لم يقطعها إلا حديث وعد:

- أنت قد كدا مشتاق للشمس يا عيسى؟!

- اشتياقي لها هو اشتياقي للحقيقة.

- مفيش حقيقة مطلقة يا عيسى، حتى الشمس بتغيب.

ثم أكملت:

- كل واحد فينا ممكن يشوف نفس الشيء برؤية مختلفة ومنظور مختلف، تغيير زاوية الرؤية ممكن يغير شكل الشيء.

- ممكن يغير شكله بس مش ممكن يغير جوهره.

- جوهر الشيء يا عيسى بالمكان اللي هو موجود فيه، يعني لو غيرت مكان الشيء ممكن تغير جوهره.

- كلامك معناه إن مفيش حقيقة، يعني كل دا وهم أو خيال؟

- فيه حقيقة يا عيسى، بس الحقيقة بتتغير برؤيتنا ليها، ممكن نفس الشيء أنت تستقبله برؤية وغيرك يستقبله برؤية تانية خالص.

- طيب أنا موجود معاكِ دلوقتِ وجوايَ حاسس إني موجود في عالم تاني.

صمتت وعد للحظات ثم نظرت إلى السماء وضحكت ضحكه خفيفة.

- أنت بتعتقد في وجود العالم الموازي أو وجود حياه تانية غير اللي على الأرض؟

- أنا اتكلمت معاكِ في الموضوع دا قبل كدا؟ أنا حاسس إني سمعت الكلام دا قبل كدا.

- حصل يا عيسى، أنا وأنت اتكلمنا قبل كدا، واتناقشنا في موضوع العالم الموازي ووجود حياة تانية غير اللي احنا عايشينها.

- إزاي مش فاهم؟

صمت عيسى صمت المتعجب قبل أن يعود إلى الكلام:

-أنا الأمور جوَّايَ متداخلة لدرجة إني مش عارف إيه الواقع وإيه الخيال، لدرجة إني مش عارف أنا حقيقة ولا خيال، أنتِ حقيقة ولا خيال؟

- بص يا عيسى، أنت مريت بتجربة صعبة جدًّا، ما قدرتش تتحمل نهايتها.

وأنا كنت بستخدم طريقة جديدة في علاجك لأنك كنت رافض الواقع ومش عايز تعيش فيه بسبب التجربة دي، وبسبب إن أنت إنسان حساس جدًّا وهش جدًّا من جواك، يمكن دا ما كانش ظاهر لك أنت شخصيًّا، وكمان ما كانش ظاهر للناس اللي حواليك لأنك كنت مغطيه بطبقة عازلة. وبسبب دا ما كنتش قادر تتحمل الحاجات الصعبة اللي حصلت لك. أنا اللي عملته يا عيسى إني دخلت لعقلك الباطن وحاولت إني أرجعك للحياة تاني.

ثم أكملت:

- بص يا عيسى بعد ما فشلنا إننا نعالجك بالطرق التقليدية، أنا استخدمت معاك الطريقة دي، بنديك نوع من الأدوية بيخلي العقل الباطن يتصرف بطريقة العقل الواعي وهو اللي يأخذ القرار. خليتك ترجع تعيش التجربة الصعبة بطريقة جديدة.

سكتت للحظه ثم أكملت:

- يعني بنستخدم مخزون الذاكرة في إننا نعيد التجربة مع بعض التدخل مننا في لحظات معينة لتحويل مسارها في اتجاه إيجابي أو مستفز بالنسبة ليك، علشان نقدر نغير في إدراكك للحدث وبالتالي تقدر ترجع للحياة. تخليك تقدر تتعامل مع الأحداث الصعبة، وأنا يا سيدي اللي دخلت معاك في التجربة. أنا عايزاك تعرف إن الدنيا يا عيسى زي ما فيها الوحش فيها الحلو، الدنيا مش أبيض وأسود بس يا عيسى.

- طيب افصلي لي الواقع عن الخيال.

- الواقع يا عيسى إن أنت كنت في موقع للتنجيم عن الدهب ودا شغلك. حصل انفجار في الموقع كل اللي معاك ماتوا من الانفجار ما عدا أنت والحارس.

- عبد العليم؟!

- صح يا عيسى عبد العليم.

- وبعدين، إيه اللي حصل؟

- نقلوك المستشفى، وبعد ما عرفوا اسمك كلموا الشركة اللي أنت شغال فيها وحاولوا يتواصلوا مع حد من أهلك، لكن أنت كنت عايش لوحدك بعد وفاة والدتك.

- طيب ومراتي؟

- أنت مش متجوز يا عيسى.

- ومنى؟

- دي جارتك اللي كنت بتحبها من غير حتى ما تقول لها.

- وأصحابي؟

- اللي عرفته إنك ما كانش ليك أصحاب، المشكلة إنك كنت بترسم حاجات في خيالك وتصدقها.

- طيب أنا جيت المصحة إزاي؟

- بعد ما أسعفوك ورجعت القاهرة، لقيت منى اللي أنت بتحبها اتجوزت، وأنت كنت شخص انطوائي وحسَّاس جدًّا،

والحقيقة أنت كنت مرتبط بيها نفسيًا والارتباط دا زاد بعد وفاة والدتك.

بعدها أنت ما استحملتش الخبر، وحاولت الانتحار، بعديها دخلت في غيبوبة، أو هروب من الواقع.

ثم أكملت:

- ودي أول مرة تتكلم من سنة.

- وإيه تفسير اللي بيحصل لي دا ؟

- دي حاجة اسمها الشخصية الحديَّة، ودا بيحصل بس للناس الحساسة أوي.

- أنا تقريبًا كدا رجعت علشان أعرف إن الأرض مش مكاني.

- كان لازم ترجع يا عيسى.

- أرجع ليه وأنا روحي مش معايَ.

- منى مش روحك يا عيسى، دي فكره وأنت اللي خليتها تسيطر عليك وعلى تفكيرك.

ثم أكملت:

- ترجع علشان نفسك وترجع علشان أي حد بيحبك.

- هو ممكن يكون فيه حد بيحبني؟

- أنا متأكدة.

رسم عيسى ابتسامة على وجهه.

- شكرًا على كل حاجة عملتيها عشاني يا وعد، بس أنا مش عايز أرجع، أنا عايز أعيش في عالم تاني غير الأرض، أنا مش قادر أتحمل الدنيا، ومش قادر أتحمل الخوف والهجر والبعد. معلش يا دكتورة أنا كاره الرجوع.

- لا هترجع يا عيسى، على الأقل عشاني أنا.

نظر إليها عيسى نظرة تعجب، وربما شكر، ثم نظر إلى الشمس نظرة طويلة، ثم أعاد النظر إلى وعد.

- أنت عارفة إيه هي الحقيقة.

- إيه؟

- أنتِ. أنتِ الشمس وأنتِ الحقيقة اللي لو حتى غابت بترجع تاني، وفي غيابها بتسيب نور للناس كلها.

- تمت

دار الزيتون
للنشر والتوزيع

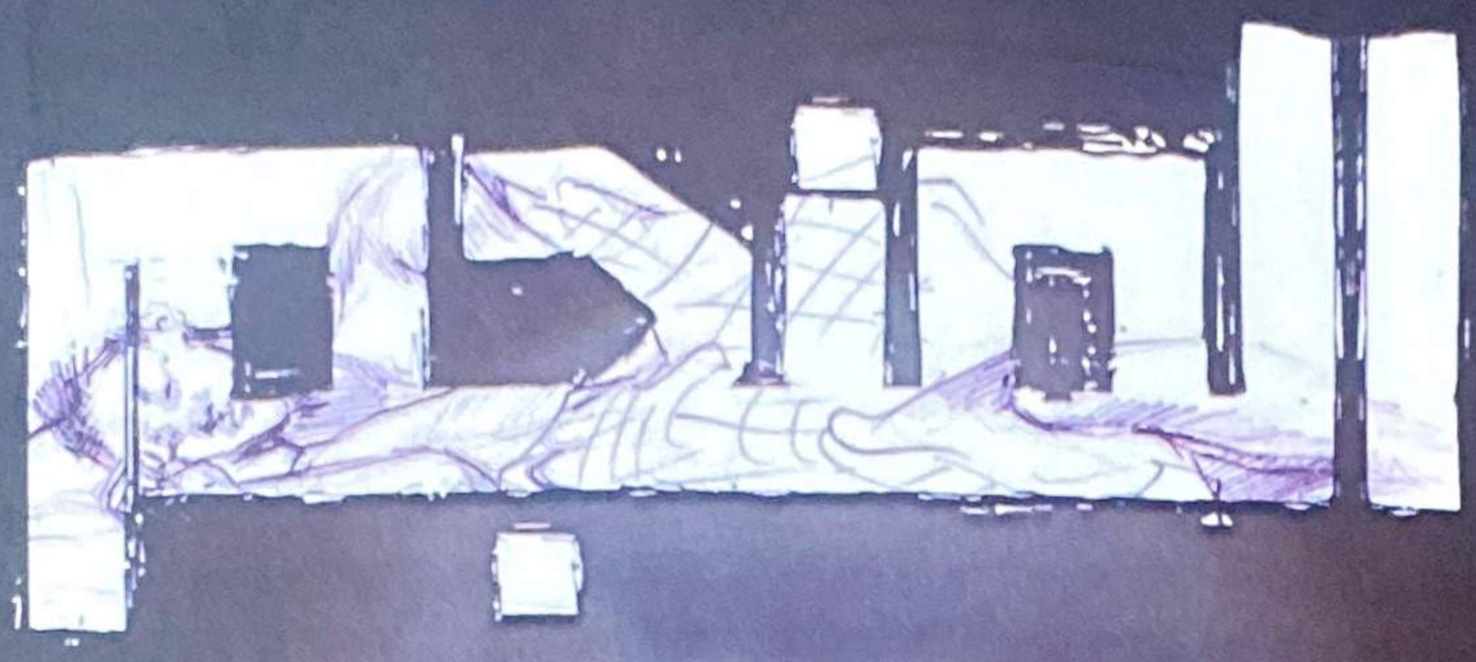

جوهر الشيs يا عيسى بالمكان اللي هو موجود فيه،
يعني لو غيرت مكان الشيs ممكن تغير جوهره
كلامك معناه إن مفيش حقيقة، يعني كل دا وهم
خـــيـــال ؟أو فيه حقيقة يا عيسى، بس الحقيقة بتتغير
برؤيتنا ليها، ممكن نفس الشيs أنت تستقبله برؤية
وغيرك يستقبله برؤية تانية خالص

تصميم الغلاف / عمر حيدة